

الديانة البوذية

فلسفتها وأصولها الأخلاقية

الأستاذ المرحوم حامد عبد القادر(*)

أولاً : فلسفتها العامة :

١ - الإله :

لم يؤثر عن بوذا نفسه أنه تعرض للألوهية بإثبات أو نفى . ومع ذلك يُروى أن البوذية الأولى كانت تعترف بوجود الآلهة الذين كان يعترف بهم البراهمة ، غير أنها تقرر أن براهما نفسه عرضة للتغير والفناء ، مثله في ذلك مثل غيره من الكائنات ، وتكرر أن وجوده مستمد من ذاته ، وأنه كائن روحاني مجرد من جميع شوائب المادة ، وأنه وحده هو مصدر المعرفة والإلهام .

٢ - النفس :

وتطبق البوذية الأولى مبدأ التحول الدائم والتعرض المستمر للعطب والفناء على النفوس البشرية الجزئية ؛ ومن ثم تكرر ما كان يقول به البراهمة عن هذه النفوس ، وهو أنها مستقرة ، لا يعترئها تحول ، ولا يلحقها عطب ولا فناء .

ومع ذلك نجد أن البوذية تتأثر بالفلسفة البراهمية وغيرها من الفلسفات الهندية في القول بمبدأ التناسخ : أي حياة الفرد مرة بعد أخرى بحيث تتأثر الحياة اللاحقة بالسابقة تبعاً لمبدأ الكارما الذي سنشرحه فيما بعد .

(*) المدير العام لشئون اللغة العربية والدين بوزارة التربية والتعليم سابقاً ، والأستاذ بدار العلوم ، وعضو مجمع اللغة العربية.

وواضح أن مبدأ التماسخ يستلزم القول ببقاء الذات أو بعض عناصرها على الأقل، وهذا البقاء يتنافى ومبدأ العطب والفناء ، فهنا تناقض فى مشكلة تتطلب الحل .

وقد أشار بوذا إشارة مبهمة غامضة إلى حل هذه المشكلة فى حديثه عن مصير الفرد بعد تفرق عناصره المحققة لوجوده الشخصى . وبيان ذلك أن وجود أى فرد من بنى الإنسان إنما هو فى رأى بوذا نتيجة لانتلاف عدد من العناصر البدنية والعقلية يطلق عليها اسم الخندات Khandhas أى المجموعات ، وهى خمس مجموعات رئيسية انقسمت فيما بعد إلى مجموعات فرعية . والمجموعات الخمس الرئيسية هى :

(أ) مجموعة الصفات البدنية ، و - ب - مجموعة الإحساسات ، و - ج - مجموعة الإدراكات الحسية ، و د - ثلاث الفكر والقول والعمل ، وهـ - الحالات الشعورية الأخرى .

ولا يمكن أن يتحقق كيان الفرد إلا بوجود هذه المجموعات جميعها ، واتحاد بعضها وبعض. وعند الموت تنقسم هذه الوحدة ، وتتفصل العناصر بعضها عن بعض ، فيفنى الفرد ، ولا يكون له وجود باعتباره فردا مستقلا له مميزاته الخاصة - ولو بحسب الظاهر . وإنما قلنا "ولو بحسب الظاهر" لأن بوذا يقول بأن للشعور بالاستقلال لذاتى شعور وهمى خداع ناشئ عن الجهل - كما سنرى .

ومع أن الفرد بهذا المعنى الذى ذكرناه يفنى فإن مبدأ الكارما الخاص به يبقى . وبطريقة ما لا يعرفها إلا بوذا وحده يكون هذا الكارما سببا فى أن يوجد فى بيئة مناسبة مخلوق جديد لا يتذكر شيئا عن المخلوق السابق ، مع أن وجود المخلوق الجديد يعد فى نظر بوذا من الناحية الخلقية امتدادا لوجود المخلوق السابق . فترتب الوجود اللاحق على الوجود السابق طبقا لمبدأ الكارما هو الذى يسمى التماسخ :

هذا - على ما يبدو لنا - هو ما يراه بوذا حلا للمشكلة . وهو كما ترى حل غامض فى حاجة إلى مزيد بيان.

ومن المؤكد أن ما يكتفه من غموض وإيهام هو إحدى نقاط الضعف فى الفلسفة البوذية.

لقد أبى بوذا أن يجارى الفلاسفة المعاصرين الذين شغلوا أنفسهم بالبحث فى المسائل الميتافيزيقية الخارجة عن حدود الطبيعة الواقعية ؛ كالبحث فى وجود الآلهة أو عدم وجودها ، وفيما إذا كان العالم أبدياً أزلياً لا يحده زمان ولا مكان وهلم جرا ، وهو إذ يرفض الخوض فى تلك المباحث الميتافيزيقية يقف من العالم المادى الواقعى موقفاً إيجابياً ، فيقتصر بحوثه واهتمامه على هذا العالم كما عرفه هو ، ذلك العالم الذى تدل المشاهدات على أنه يخضع لمبدأ التحول والتغير الدائم ، وعلى أن من صفاته الحياة ، والنمو ، والعطب ، ثم الفناء .

فقد قرر بوذا فى غير تردد أن هذا العالم الخاضع لهذه الظروف ، المتصف بتلك الصفات ، الذى لا ينفك يتغير ويتحول هو وحده الذى يعنيه ، لا غيره من العوالم والكائنات التى لا تخضع للمشاهدة والمعرفة المباشرة .

٤- مبدأ للكارما :

تأثرت البوذية بالبراهمية فى القول بمبدأ للكارما أى الجزاء ، وهو مبدأ خضوع الكائنات والحوادث الكونية لسلسلة الأسباب والمسببات . ويتضمن هذا المبدأ أن حياة الفرد فى عصر ما هى نتيجة حتمية لحالته أو سلوكه فى حياة سابقة . ويضرب البوذيون لذلك بعض أمثلة نسوق منها مثالين . أما الأول فهو قصة زاهد جلس تحت شجرة ، وانغمس فى تأملاته الروحانية ، وحين هم بالقيام من مقامه اصطدم رأسه بأحد أغصان الشجرة فألمه ، فحقن الزاهد على الغصن وقطعه وما إن قطعه حتى تحول جسمه وصار جسم ثعبان ؛ جزاء على ما اقترف .

وأما الثانى فهو قصة الزاهد الذى مات عطشاً ؛ لأنه لم يجد ماء يشربه غير ماء به بعض حشرات صغيرة لم يستطع إخراجها من الماء ، فأبى أن يشرب الماء خشية أن يبتلع تلك الحشرات ويكون ذلك سبباً فى موتها فى جوفه . فكانت عاقبه أمره النيران ؛ وذلك بأن صعدت روحه إلى الملاء الأعلى .

٥- مبدأ التناسخ :

كان مبدأ التناسخ من المبادئ المشتركة الشائعة فى الفلسفة الهندية على اختلاف صورها ، ومن ثم انتقل إلى الفلسفة البوذية ، ويمكن أن نقول على وجه الإجمال إن مبدأ التناسخ نتيجة حتمية للقول بمبدأ الكارما ؛ فهما مبدأان متلازمان ؛ لأنه إذا لم يكن بد من تنفيذ حكم القصاص بأن تنال الروح جزاءها فلا مناص من انتقالها بطريقة ما وبصورة ما إلى كائن آخر لتكفر عن سيئاتها إن كانت شريرة فى الحياة الأولى ، أو لتحظى بنوع من الرقى والسعادة إن كانت قد سلكت مسلك الخير فيما سبق . وهذا هو معنى قول البوذيين : إن الروح تولد مرة بعد أخرى ، ولا تزال كذلك حتى تصل إلى درجة النيرفانا .

وقد استدلل البوذيون على صحة مبدأ التناسخ بالمشاهدة ، فقالوا إننا نرى فى الحيوان بعض صفات الإنسان ، وفى الإنسان بعض صفات الحيوان ؛ فإن لدى الحيوان قابلية للتعليم ، ومعرفة ضروريات الحياة ، والقيام بأعمال بعضها متقن محكم وصل إلى إتقانها من غير معلم أو مرشد ، ولديه علم بالتوالد بطريقة المباشرة ، ومعرفة بتربية الوليد ، وتعليمه أخلاق أبويه وعادات أبناء جنسه ، وفيه جنو وائتناس بالإنسان إذا تألفه واستماله إليه بالرفق وحسن المعاملة . ومنه ما يعقل عن الإنسان ويفهم ما يقوله ويعمل به ؛ فيقف عندما يقول له : قف ، ويقدم عندما يستدعيه إليه من بعد ، ويفهم منه الإشارات اليدوية فيذهب هنا وهناك ، وذلك كله إنما يتم - فى نظرهم - بتأثير الروح المنتقل إليه عن إنسان ، فيرد على الجسم الذى يحل فيه ما علمه عندما كان فى جسم الإنسان .

هذا فى الحيوان ، أما الإنسان ففيه من يميل إلى النفرة والعزلة ، والافتراس والاغتيال ، وكراهة أصناف من الحيوان أو النبات أو المعدن مما يكرهه بعض أجناس الحيوان ، ومنه من يميل إلى الشجاعة أو الجبن ، أو الكرم أو الشح ، أو السكون أو البطش ، أو النفع أو الضرر ، أو الخمول أو الظهور ، أو اللين أو القسوة ، أو غير ذلك مما هو من خصائص الحيوان . وما ذلك إلا بتأثير الروح الآتى له من حيوان عدم هيكله .

كان من أهم أهداف بودا أن يشرح للناس الطريقة التى يمكن بها إنقاذ الإنسان إنقاذاً نهائياً من ربة الكارما ، وعدم اضطراره لأن يحيا أو يولد مرة أخرى ؛ وذلك بأن تصفو روحه ، وتتخلّى عن الأوزار التى تتطلب تناسخها وانتقالها إلى كائن آخر تسلك فيه مسلكاً خلقياً طيباً يبرئها من تلك الأوزار ، أو يجعلها صالحة للاتصال بالملأ الأعلى وفقاً لمبدأ النيرفانا.

وكان يقصد بالنيرفانا فى أول الأمر : انتقال الروح إلى الملأ الأعلى بعد أن يحيا الفرد حياة خلقية صافية راقية لا تضطره لأن يحيا حياة أخرى كما قلنا من قبل . ولكن هذا المبدأ طرأ عليه فيما بعد معنى جديد ، إذ قصد به : وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه ، والقضاء على جميع رغباته المادية .

والفرق بين المعنيين واضح ؛ فالمعنى الأول يقضى بأن هذا المبدأ لا يتحقق إلا بعد الموت . أما الثانى فيقضى بأنه من الجائز أن يصل المرء إلى مرتبة النيرفانا فى حياته - إذا أفلح فى الوصول إلى الدرجات العليا من درجات الرقى الروحاني ، ولم يكن ثمة داع إلى تناسخ روحه .

ويزيد كاونتنز هذا المعنى وضوحاً فيقول : إن النيرفانا هى الحالة التى يقف فيها التناسخ الذى تتعرض له دائماً النفوس المعذبة . وتتضمن هذه الحالة فناء الرغبة ، وفناء الشعور . ومع أن البوذيين لا يذكرون أنها تتضمن انتهاء الحياة أيضاً ، فإن ذلك هو النتيجة المنطقية للتفكير البوذى ؛ ذلك لأن الوجود نفسه - فى رأى البوذيين - هو الشر الذى على الإنسان أن ينقذ نفسه منه . ومن الممكن أن نعرف النيرفانا من ناحيتها السلبية بأنها هى : عدم الرغبة ، وعدم الشعور ، وعدم الحياة ، وكذلك عدم الموت . وأن نعرفها من ناحيتها الإيجابية بأنها : الحالة التى تتحرر فيها الروح من التناسخ ؛ أى الحالة التى لا يضطر فيها الإنسان إلى أن يموت ثم يولد مرة أخرى أو أكثر .

ولا يخفى أن المراد "بعدم الحياة" انتهاء الحياة المادية فى الأرض ، وأن المراد "بعدم الموت" العروج إلى الملاء الأعلى حيث تبقى الروح مستمتعة بحياة روحانية سعيدة .

هذا عرض إجمالى للفلسفة البوذية الميتافيزيقية فى عصرها الأول . ومنه ترى أوجه التشابه والتخالف بين البوذية والبراهمية التى كانت شائعة فى عصر بوذا ، وهى التى خرج عليها ، وأعلن أن نظام الطبقات الذى وضعته نظام فاسد ، وأنه ليس للربان ولا لغيرهم من رجال الدين أن يدعوا . أنهم أفضل من غيرهم من الناس بحكم أنهم مقربون إلى براهما .

ثانيا : أصولها الأخلاقية :

١- تتضمن الموعظة الكبرى ، التى ألقاها بوذا على أصدقائه الخمسة ، الأصل الأول من أصول التفكير البوذى الأخلاقى ، وهو مبدأ ضبط النفس ، ونجد فى هذه الموعظة أيضا إشارة إلى الحقائق الأربع السامية ، والطريقة الثمانية العناصر .

أما الحقائق الأربع التى يبنى عليها بوذا فلسفته الأخلاقية فهى :

أولاً : أن الوجود كله هم وحزن ، ومعنى ذلك أن الحياة بجميع صورها ليس فيها إلا ما يؤلم الإنسان ويضيره ، ويسبب له الهم والغم . وهذه حقيقة واقعية لا مناص من الاعتراف بها فى رأى بوذا ، فكل فرد يولد وينمو ، ويدركه المرض ، وتلحقه الشيخوخة ثم يموت ، وهو فى كل مرحلة من هذه المراحل ، وفى كل صورة من هذه الصور يعانى كثيرا من الآلام ، فיאسف عند مفارقة الأحباب ، ويغضب أشد الغضب إذا اعتدى عليه ظالم له ، ويتألم إذا أصابه سوء أو حل به مرض . وقد تشتد رغبته فى الحصول على بعض المآرب ، فإذا لم يحصل عليها ضاق صدره ، وساء حاله .

ثانياً : أن سبب الهم والحزن هو الشهوة ؛ فالإنسان باتصاله بالحياة الخارجية المادية تتحرك فى نفسه الشهوات الحسية والرغبات الدنيوية ، فتتوق نفسه إلى الاستمتاع بملذات الحياة ومباهج العيش . وهو فى الغالب لا يستطيع تحقيق أمانيه

فيعتريه الحزن ، ويحيط به الغم من كل جانب . فالشهوة منبع الحزن ، ومصدر الهم والغم .

ثالثًا : لكى يتخلص الإنسان من الغم ويهزم ما يشعر به من حزن يجب عليه أن يتغلب على تلك الشهوة ، وأن يقطع كل صلة تربطه بالحياة المادية . فهذا الحكيم يرى أن لا شئ يحرر الإنسان من أغلال الحياة وينقذه من آلامها إلا قتل الشهوات ، ومحو الرغبات .

رابعًا : لكى يصل الإنسان إلى هذا الغرض - وهو القضاء على كل أثر من آثار الشهوة - يجب عليه أن يسلك المسلك الثمانى العناصر ، أى أن يتبع فى سلوكه فى الحياة ثمانية مبادئ تسبب لنفسه السعادة ، وتكفل لها التحرر من أغلال الحياة ومتاعبها . وهذه هى التى تسمى الطريقة الثمانية العناصر .

أما هذه المبادئ الثمانية فهى :

١- العقائد الصحيحة .

٢- الأغراض الشريفة .

٣- القول الطيب .

٤- العمل الصالح .

٥- اتباع خطة قديمة فى الحياة وكسب العيش .

٦- بذل الجهد الصادق .

٧- الاهتمام .

٨- صدق التأمل الروحانى .

ويقصد بالعقائد الصحيحة : الإيمان بالحقائق الثلاث الأولى المتعلقة بالهم والحزن التى ذكرناها فيما سبق .

ويراد بالأغراض النبيلة : الاتجاه دائما إلى عمل الخير والتفكير فيه ، واجتناب الاتجاه إلى الشر والتفكير فيه .

ويتضمن القول الطيب : حفظ اللسان من الكذب ، والتنمية ، والسب ، والاستهزاء بالناس .

ويدخل فى العمل الصالح : كل ما ينفع الناس . وهذا يتضمن الابتعاد عن الأعمال الشريرة ، كالاعتداء على الأرواح أو الأموال أو الأغراض .

ويراد باتباع خطة قويدة فى الحياة وكسب العيش : أن يحسن الإنسان معاملة الناس ، وألا يكسب المال إلا من وجوهه التى تقرها الأوضاع المقبولة .

ويراد بالجهد الصادق : أن يبذل الإنسان فيما يتناوله من أعمال جهدا صادقا ، فلا يتراخى فيها . ويدخل فى ذلك أن يحاول المرء دائما أن يغرس فى نفسه الاتجاهات الطيبة المقبولة ، وأن يبعد عنها النزعات الخبيثة الشريرة .

والاهتمام حالة نفسية تحمل الإنسان على الانغماس فى عمله ، ومتابعة السير فيه ، دون الشعور بئاس فى الحال ، ودون التعلق بأمل فى المستقبل .

ومعنى صدق التأمل الروحانى : التفرغ للتبذل والرياضة الروحانية ، والانغماس فيها كى يصل الإنسان إلى الغرض الأسمى وهو النيرفانا .

٣- ومن أبرز مبادئ بوذا - بالإضافة إلى ما تقدم - مبدأ الحب الشامل . وفى ذلك يقول : " كما أن حب الأم يحملها على أن تحرص على حياة ولدها أو ابنها الوحيد - ولو أدى ذلك إلى أن تضحي بحياتها - فكذلك يجب على الإنسان أن ينمى فى نفسه حبا لا حد له لجميع الكائنات ، وأن يشعر قلبه المحبة الخالصة من جميع الشوائب المصلحية لكل ما فى العالم من فوقه ، ومن تحته ، ومن بين يديه . وعلى الإنسان أن يكون شعاره الاهتمام فى كل لحظة من لحظات حياته ، وفى كل وقت من أوقات يقظته ؛ ماشيا كان ، أو جالسا ، أو مضطجعا . إن هذه الحالة القلبية هى أفضل ما فى الوجود ، إنها التجربة النبيلة حقا " .

٤- ويسلوك المسلك الخاضع للثمانية المبادئ يستطيع الإنسان أن يفهم مبدأ تسلسل الأسباب والمسببات (الكارما) ، ويدرك أسرار ذلك الغل الذى يقيد نشاطه ، ويربطه بالحياة المادية الأرضية.

ويشبه هذا الغل سلسلة ذات ثمانى حلقات يصورها بوذا على النحو الآتى :

١- للوجود أو الحياة هم وحزن . ومنشأ هذا الحزن هو أن الإنسان يولد ويوجد فى هذا العالم . وقد وجد الإنسان فى هذا العالم لأنه ينتمى إلى عالم الأحياء.

٢- وإنما يبقى الإنسان حيا لأنه يغذى نفسه ويعزز وجوده.

٣- والشهوة هى التى تدعوه إلى هذه للتغذية.

٤- ومنشأة هذه الشهوة هو الإحساس.

٥- ومنشأ هذا الإحساس هو الاتصال بالعالم الخارجى ؛ فالاتصال بالعالم الخارجى إنما يكون بالإحساسات التى هى وظائف الحواس ، فهى وسائل الصلة بين الإنسان والعالم للخارجى.

٦- وهذا لا يكون إلا على أساس أن كل فرد من بنى الإنسان شخص مستقل قائم بذاته، له وجود وكيان غير وجود العالم الخارجى وكيانه . وهذا الوجود الشخصى المستقل يصحبه شعور بالذاتية المستقلة التى يعبر عنها بضمير المفرد المتكلم وهو "أنا" .

٧- وهذا الشعور بالذاتية نتيجة أو أثر من آثار حيوات سابقة .

٨- وهذه الحيوات السابقة قد حجبت الشعور بما أضفت عليه من غشاوة الجهل بالحقيقة الخالدة.

فالسبب الأساسى فى الحياة على الأرض وفيما يعانيه الإنسان فى هذه الحياة من يؤس وشقاء وهم وحزن هو الجهل بالحقيقة الخالدة وهى وحدة الوجود . وهو فى الوقت نفسه السبب فى اضطراب الروح إلى التناسخ أو الرجعة ، أى إلى أن تحيا حياة أخرى تحظى فيما بنعيم المعرفة .

ومن ثم كان الجهل أكبر الكبائر ، وأشنع الرذائل ، وكان سبيل الإنسان إلى التحرر من أغلال الهموم والأحزان أن يضيء جوانب نفسه بنور المعرفة. وهذا أمر سهل ميسر لكل إنسان.

وليس من الممكن أن تتحرر النفس من تلك الأغلال بالعبادات الظاهرية ، ولا بالحرمان من الطعام والشراب ، وإنما تتحرر بضبطها ، وكبح شهواتها حتى لا تتطلع إلى ملذات العيش ومباهج الحياة الخداعة .

٦- ولا يكتفى بوذا بإذاعة المبادئ الثمانية الإيجابية السابق ذكرها ، بل إنه يضيف إليها ويرتب عليها عشر وصايا سلبية ، خمس منها عامة موجهة إلى جميع الناس ، وخمس خاصة بالرهبان وتلاميذ بوذا.

أما الخمس العامة فهي :

١- لا تقتل .

٢- لا تسرق .

٣- لا تزن .

٤- لا تكذب .

٥- لا تتناول مسكرا.

وأما الخمس الخاصة فهي :

١- لا تتناول طعاما يابساً بعد الظهر .

٢- لا تحضر حفلات الرقص والغناء والتمثيل .

٣- لا تنترن بأى نوع من أنواع الزينة ، ولا تستخدم أى نوع من أنواع الطيب .

٤- لا يتم على فراش وثير .

٥- لا تقبل من أحد ذهباً ولا فضة .

فإذا نهج البوذى المنهج المرسوم له ، واتبع الأوامر ، واجتنب النواهى فإنه يحطم بالتدريج الأغلال العشرة التى تقيد روحه ، وترغمها على الرجعة لتصل إلى درجة الكمال .

وهذه الأغلال هى :

١- توهم الذاتية أو الانفصال عن العالم الحقيقى ، وهو وهم ينافى مبدأ وحدة الوجود.

٢- الشك .

٣- الاعتقاد بفائدة الأعمال والعبادات الظاهرية.

٤- الانغماس فى الشهوات الحسية.

٥- سوء النية وخبث الطوية.

٦- حب الحياة فى العالم المادى.

٧- حب الحياة المستقلة فى عالم غير مادى.

٨- الغرور.

٩- الاعتقاد بطهارة النفس.

١٠- الجهل.

وبتحطيم هذه الأغلال يتم تحرير النفس ويتحقق إنقاذها ، ويصير البوذى

المحرر التقى فى غنى عن أن يحيا حياة أخرى.

* * *